حوار

مدير عام مركز التراث الشعبي في قطر عبد الرحمن المناعي

الخليج لم يخرج من برميل بترول

بدأ مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية عمله كمؤسسة علمية مستقلة منذ مارس ١٩٨٢، واتخذ من مدينة الدوحة مقراً له.

وهو إحدى المؤسسات الإقليمية الخليجية المشتركة. ويهدف إلى جمع وتدوين وتحقيق كل ماله علاقة بالتراث الشعبي في دول الخليج، وتقديم ونشر الدراسات حول التراث الشعبي من منطلق الدراسة الشاملة للتراث الشعبي العربي، وربطه بالتراث الشعبي في العالم لمعرفة الأصول والمكونات الأولى وخصائصها ومدى تفاعلها، كما يهدف المركز إلى رعاية التراث الشعبي في المنطقة بوصفه ثروة وطنية وقومية وحمايته من استغلال الغير له، وتأكيد المحتوى الوطني لطبيعة العمل الميداني لتجميع التراث الشعبي وحفظه عن طريق خلق مشاركة شعبية واسعة لإدخال المناسب من الثقافة وما طرحته من قيم سامية إلى مناهج التربية الحديثة بالدول الأعضاء.

حوار: صالح غريب

يقول عبد الرحمن المناعي المدير العام للمركز «للصدى»: لتحقيق هذا الهدف حرص المركز على عقد ندوات تخصصية لدراسة الجوانب النظرية والتطبيقية للوصول إلى تصورات واضحة حول مفاهيم ومصطلحات وآليات يمكن من خلالها تناول الجوانب المختلفة للتراث، كما عقد حلقات أخرى تناولت حماية أشكال التعبير الفولكلوري وتأصيل التراث الشعبي لدى الطفل العربي في الخليج، وتصنيف منهجي لمواد المأثور الشعبي وإحياء الألعاب الشعبية وغير ذلك.

كما أقام المركز دورات تدريبية في ميادين علم الفولكلور ونظرياته، والجمع الميداني، وفهرسة وتصنيف مواد التراث الشعبي. ويضيف المناعي قائلاً: إن المركز يسعى إلى استكمال مشروع جمع وتصنيف العادات، والتقاليد المرتبطة بدورة حياة الإنسان في جميع دول المنطقة، في ظننا أنّ هذا المشروع يشكل العمود لأنشطة المركز، لأنه يغطي في محصلته النهائية جوانب عديدة في تفصيلات حياة الإنسان وممارساته اليومية وتفكيره وأشكال تعبيره الفني، وينقسم هذا المشروع إلى ثلاث مراحل: مرحلة الميلاد، وتشمل الفترة ما قبل مولد الإنسان وحتى بلوغه سن الثانية عشرة، ومرحلة الزواج، وتشمل الاستعدادات له والطقوس المرافقة لهذا الحدث في حياة الناس، وأخيراً مرحلة الوفاة.

• متى بدأ العمل في هذا المشروع؟

– يجيب المناعي – بعد أن اطلع على كم الأوراق والأشرطة والمدونات لمرحلة الميلاد في كل من دولة الإمارات، والكويت، وقطر، بعد صدورها في كتاب من إعداد آمنة راشد الحمدان ود. إسماعيل الفحيل: بدأ العمل في تنفيذ هذا المشروع منذ العام ١٩٨٧، ومازال مستمراً من أجل استكماله في جميع دول المنطقة، وهو بحكم شموليته وسعته يتطلب الكثير من الجهد، وبصفة عامة فإن المركز معني بتغطية كافة حقول المعرفة الشعبية والتي تشمل: الأدب الشعبي بمفرداته المختلفة مثل الحكاية، والمثل، واللغز، والنداء، والأقوال، ونصوص الأغاني، والعادات والتقاليد والمعارف الشعبية التي تغطي مراحل العمر المختلفة، وعادات الأعياد والمناسبات، وأشكال العلاج وطقوسها من سحر وخلافه، وكل صنوف الأداء الغنائي والحركي من موسيقا وغناء ورقص، والثقافة المادية وما تشمله من حرف وصناعات شعبية.

• **هل نستطيع أن نقول: إن هناك تراثاً شعبياً واحداً في منطقة شاسعة تبدأ من الكويت وتنتهي بصلالة في سلطنة عمان؟**

– غالباً ما يثار هذا السؤال عما إذا كانت خبرة المركز وأنشطته وأبحاث المهتمين بالتراث الشعبي في المنطقة تؤكد وجود تراث شعبي خليجي واحد. في حقيقة الأمر إن الحالة الاقتصادية المتماثلة في بلدان المنطقة، وعلاقة أهالي المنطقة التاريخية بالبحر والغوص على اللؤلؤ قد وسمت أنشطتهم الاقتصادية وعاداتهم بسمات مشتركة.

ولكن بطبيعة الحال هناك فروق في التفصيلات وفي بعض المفردات، كنتاج لانعكاس البيئات الخليجية المختلفة، بين المدن الساحلية، والبيئة الصحراوية، والبيئة الزراعية.. إلخ، وكنتيجة لتأثر منطقة ما أكثر من غيرها بحضارة مجاورة.

ويضيف المناعي قائلاً: كقاعدة عامة، كلما بعدت المنطقة الجغرافية عن البحر، فإنها تكاد تتميز بموروثات شعبية مختلفة كما هو الحال في الأجزاء الجنوبية من المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان، على أننا في المحصلة النهائية لا نستطيع إلا أن نؤكد على أن الغلبة هي للتشابه والوحدة في العادات وفي أنساق النشاط الاقتصادي. بل إنه حتى في مجال العلاقات الخارجية مع المحيط، كانت علاقة كل بلدان المنطقة مع الهند وفارس، والشرق الأفريقي.

وليست هناك حاجة للتأكيد على أن التراث الشعبي يستحق كل هذا الاهتمام، بل يجب الاعتراف أن ما نعطيه من اهتمام مازال دون المستوى المطلوب.

• **ما الأسباب؟**

– الأسباب كثيرة، فهذا التراث مهدد بالضياع والاندثار، ولابد من مضاعفة الجهود لحفظه للأجيال الجديدة قبل فوات الأوان، وهناك ضرورة أيضاً لإبراز الهوية الخليجية المشتركة التي تمتد جذورها بعيداً في التراث للتأكيد على وحدة المنطقة وأهلها.

تراثنا الشعبي مهدد بالضياع والاندثار

تراث الإمارات غني لاختلاف بيئاته

ويواصل المناعي حديثه قائلاً: الأهم من هذا وذاك أن التغيرات التي تشهدها المنطقة أصبحت تهدد ما هو أصيل ومعبر عن البيئة الخليجية من فولكلور ورقصات شعبية وأغان وعمارة قديمة وحرف يدوية.. إلخ.

• **علينا هنا التساؤل: هل كانت هذه التغيرات التي شهدناها منطقية؟ وهل أخذت المدى الزمني المعقول؟ وهل كان للإنسان دور رئيس في دفع عجلة هذه التغيرات؟!**

– إنني أشبّه ما حدث لدينا بحالة انتشال رجل يستحم في البحر عارياً إلا مما يستر عورته، وإدخاله فجأة تحت أنوار كاشفة في بهو فندق كبير في عاصمة مزدحمة.

ويضيف: لو أجرينا مقارنة بين الإنسان عندنا سابقاً وبين إنسان اليوم سنجد البَوْن شاسعاً، كان الناس سابقاً، على الرغم من شظف العيش، أكثر إنتاجية وأكثر دراية بفنون أعمالهم، فحتى بداية هذا القرن كانوا على قدر كاف من الثقافة والاطلاع على ما يتصل بمجال عملهم، فكانوا يعرفون فنون والملاحة ومنازل النجوم والطوالع، وكانوا خبراء بمواقع المحار وأصناف اللؤلؤ وأنواع السمك، وفنانين في صناعة السفن التقليدية التي وصلت حتى الصين بالشراع، وبارعين في ابتكار مصائد الأسماك.

• **لماذا هذا الجهل عند الناس على الرغم من التعليم والتطور الحضاري الذي نعيشه؟**

– هذا السؤال دقيق ويحتاج إلى إجابة دقيقة؛ الناس في المنطقة على الرغم من التعليم الذي تلقته إلا أنها جاهلة بالكثير، وعلى سبيل المثال فكم عدد الناس الذين يعرفون كيف يستخرج البترول، وكيف يسوّق في بلدان قائمة في اقتصادها على هذا المصدر الأساسي إن لم يكن الوحيد.

لقد فُتن الناس بما حدث بين عشية وضحاها، فاستسلموا لإغراء السهولة في محاولة لنسيان الفقر والجوع والتعب فدخلت «الحداثة» إن جاز التعبير حياتهم، وفسخت كل القيم الاجتماعية التي نشأوا عليها، وغيرت في لحظة زمنية سريعة أشكالهم الخارجية.

ومن هنا تأتي أهمية وجود مؤسسة مدعومة وقادرة على العمل وسط هذه المتغيرات المفاجئة والمتلاحقة، ليس من أجل إبقاء التراث أو إعادة ممارسته، وإنما من أجل البحث عن الإنسان كقيمة وكفكر وكإنتاجية، قبل التغير العاصف الذي جاء مع النفط. لابد من توثيق تلك المرحلة كلها على الإطلاق لأنه ليس لنا أي حق في أن نرفض معرفة أجيال بأكملها، وحين نستطيع إنجاز هذه المهمة سيكون هناك متسع من الوقت لإثارة التساؤلات للاختيار، للقبول والرفض، ولكن بعد أن نكون قد أبرزنا للعالم أصالتنا، وأكدنا أننا لم نخرج «من برميل بترول». لابد من ملاحظة عودة الكثير من أبناء المنطقة للتراث الشعبي، فمنهم من وجد في العمارة التقليدية ببساطتها وكفاءتها مايريحه، وأخذ يلعن الحضارة الإسمنتية التي جلبت إلينا دونما حاجة إليها.

• **ما المعوقات التي تعيق العمل في هذا المجال؟**

– لا يمكن لمن يعمل في مجال جمع وتدوين وحفظ التراث الشعبي أن يغفل المثبطات والمعوقات الكثيرة المحيطة بهذا العمل، فالخبرة المتراكمة في هذا المجال ما زالت محدودة، وهناك معاناة من ندرة الراغبين في العمل في هذا الحقل على الرغم من أننا ،كمركز، نوفر فرصاً كثيرة للتدريب وحوافز مالية، والأخطر من هذا كله أن عجلة التغير السريع تسحق كل شيء ويحاصرنا فقدان الذاكرة وضعف الانتماء، ولكن يجب ألا يدفعنا كل ذلك إلى التقاعس عن الاضطلاع بهذه المهمة النبيلة، فالمصاعب تواجه كل المؤسسات، نظراً لغياب أو ضعف التراث المؤسساتي عندنا، لذا لابد من البحث عن أبواب جديدة وفتح نوافذ إضافية للعمل، والسعي لإشراك الآخرين في همّ يكاد يكون عاماً. وإن لم نفعل ذلك فإن تراثنا سيسحق تحت عجلات هذا التغيير المشوه.

• **ماذا عن اهتمام دولة الإمارات بالتراث الشعبي؟**

– إن دولة الإمارات العربية المتحدة من الأعضاء المهمة في المركز لوجود مادة التراث الشعبي في البيئات المختلفة التي تضمها بيئة الدولة، منها: الصحراوية، والجبلية، والبحرية، والزراعية، وهذه البيئات الأربع فيها تراث غني، إلى جانب اهتمام رئيس الدولة بالتراث الشعبي ما يدعم دور وعمل المركز في أداء مهماته لحفظ التراث الشعبي. من هذا المنطلق فإن الإمارات وغيرها من دول المنطقة أصبحت تهتم بصورة أكبر بتراثها.

كان يغيب عن الجانب العلمي لجمع التراث الشعبي، أمام اللهاث وراء إصدار المطبوعات التي فيها، وللأسف، الكثير من الأخطاء التي تنسب للتراث. إن الحاجة ماسة للتأكيد على أن النوايا الطيبة وحدها لاتغني عن أهمية المنهج العلمي السليم لجمع المأثور الشعبي، وأساليب الحفظ والتصنيف. ونذكر هنا أن المركز سوف ينظم ندوة علمية بمدينة أبوظبي حول عادات وتقاليد دورة الحياة خلال الفترة من ٢-٣ أكتوبر المقبل■